طقوس البحر في رواية (النجدي) لطالب الرفاعي

الأستاذ الدكتور صبحة أحمد علقم
قسم اللغة العربية - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الشيخ زايد -
دولة الإمارات العربية المتحدة
Sabaalkam2000@yahoo.com

The Rituals of the Sea in "AlNajdi" Novel by Taleb Al-Rifai

Professor Sabha Alkam
Arabic Language and Literature Department , Faculty of Sciences
Shiekh Zayed
University , UAE

الملخّص :

يهدف البحث إلى استكناه عالم البحر: أسراره وطقوسه وأهواله ودلالاته في رواية "النجدي" للروائي الكويتي طالب الرفاعي، التي يستحضر فيها شخصية واقعية شهيرة ومؤثرة في الوجدان الشعبي بالكويت، هي شخصية البحار، أو "النوخذة" علي ناصر النجدي عبر سرد تفاصيل الساعات الأخيرة من حياته، حيث يبتلعه البحر هو وصاحبه عبد الوهاب وأخاه سليمان، أثناء عاصفة غادرة. ولا يكتفي الروائي في تصوير صراع النوخذة مع العاصفة وحسب، بل يتتبع علاقته مع البحر وعائلته ورفاقه، بدءاً من طفولته والاكتفاء بالقليل من التحصيل العلمي ليربح البحر، ورفض أي مستقبلٍ لا يمسه مباشرة، والإلحاح على معانقته مبكراً، والتعلق بكل ما يتصل به، من شخوص وحكايات ومغامرات، ووثائق وإشارات لقيم البحر التاريخية بهدف تسليط الضوء على إسقاطات عديدة تمس المجتمع الكويتي مباشرةً، إذ لامست العادات والتقاليد السائدة، ومسألة تحول الدولة والمجتمع من مرحلة ما قبل النفط والارتباط بالبحر والحياة البسيطة إلى مرحلة مدنية الدولة. كما يكشف الروائي عن معرفته المعمقة بثقافة الإبحار، والغوص والبحث عن اللؤلؤ وأدواته وخبراته وطقوسه.

الكلمات المفتاحية : النجدي ، النوخذة ، البحر، طقوس ، العاصفة .

Abstract:

This research aims to get to grips with the world of the sea: its secrets, rituals, horrors, and implications in the novel "Al Najdi" by Kuwaiti novelist Talib Al-Rifai, in which he evokes a famous and influential realist figure in the popular conscience in Kuwait. This character is namely a character of the sea, or the "Nokhatha" Ali Nasser Al-Najdi by narrating the details of the last hours of how His life is swallowed up by the sea, along with his companion Abdel-Wahhab and his brother Suleiman, during a treacherous storm. The novelist is not satisfied with the depiction of Al-Nokhatha's struggle with the storm only but also traces his relationship with the sea, his family, and his companions, starting from his childhood and contenting himself with modest educational attainment to win the sea. Furthermore, he rejects any future that does not touch him directly, the insistence on embracing him early, and attachment to everything related to him, of people Stories and adventures in addition to Documents and references related to the historical values of the sea aiming at shedding light on many projections that affect Kuwaiti society directly. This is due to that they touch upon the prevailing customs and traditions, and the issue of the state and society's transformation from the pre-oil stage and the connection with the sea and simple life to the civil state stage. The novelist also reveals his in-depth knowledge of the culture of sailing, diving, and the search for pearls, their tools, experiences, and rituals.

Key words : Al-Najdi , Al-Nokhatha , The Sea , Rituals , The Storm

المقدمة :

يكاد البحر بامتدادته الواسعة يجتاح الكرة الأرضية، ويسم تضاريسها، ولكن اللافت للنظر أنه لا يحتل مساحة كبيرة في النتاج الإبداعي الحديث كما نجد في موروثنا القديم[١] ، لا سيما في مجال النثر، على الرغم من أسره لأبصار المبدعين وقلوبهم، فلعل البحر كما قيل بحرٌ لا يركبه إلا المتمرسون، وكذلك هي الكتابة عن البحر.

لذلك نقر منذ البداية بتمرس طالب الرفاعي بالكتابة الإبداعية وإتقانها، وإلا لما كان يقوى على كتابة رواية مثل رواية "النجدي" التي تسمع قارئها منذ البداية وشوشات البحر، وتدخله في مده وجزره ليخرج منها ورائحة البحر تعبق في ذاكرته.

يقر الجميع بأن حكاية النجدي حدثت في الواقع، فـ"النوخذة" علي النجدي شخصية حقيقية ذكرتها كتب التاريخ والواقع، عشق البحر وحفظ أسراره وخباياه، لكن البحر غدار ابتلعه في أعقاب عاصفة حدثت في التاسع من شباط عام ١٩٧٩، لتُطوى حياته، وتُطوى معها صفحة من صفحات تاريخ الكويت عندما كان البحر قبلته ومصدر رزق أفراده، وتبدأ صفحة النفط وما تبعه من تحولات اجتماعية وسياسية واقتصادية رصدها الراوي من قلب البحر في زمن روائي يضيق بنصف يوم تبدأ الرواية من الساعة ١١:٣٠ صباحاً وتنتهي في الساعة ١١:٣٠ مساءً ليتسع ويشمل أكثر من سبعين عاماً عاشها "النوخذة" علي النجدي في ظلال البحر ومتنه.

فالبحر كما تشي الرواية سيد المكان والزمان معاً يجتاح الرواية منذ البداية حتى القسم الثامن الذي ينهي الكاتب روايته به، وكأن لسان حال الراوي يقول: من البحر نبدأ وإليه نعود، وجاء هذا المعنى في بعض الفلسفات القديمة، لذلك ستبدأ دراستي من نداء الحياة نداء البحر وتنتهي بصرخة الموت، وبين الموت والحياة لغة شعرية فرضتها طقوس البحر وأسراره التي تشعر الإنسان بالخوف والدهشة والغموض الدائم ، ويجعلنا نترقب دائما القادم بشغف وأمل كبيرين[٢]

نداء الحياة نداء البحر

"تعال" مفتاح الرواية وبداية حكايتها، وهو فعل أمر، والأمر موجه لطفل في الخامسة من عمره يتخلص في دعوة للبحر بركوبه، ولعل هذا الأمر مشفوع بالساعات الطويلة

التي كان يقضيها هذا الطفل على شاطئه متأملاً سفنه، ودعوة من البحر المعشوق للطفل العاشق ليجيبه عن سؤاله الذي يلح عليه:

"ما الذي يفعله البحر بالسفن الكبيرة فتصبح صغيرة في حضنه"(٣)، وهذا النداء يتوالى ويتتابع:

"ظل البحر ينادي علي: تعال" (٤).

فالرواية، كما نلحظ، تلجأ إلى السرد بضمير المتكلم، والسرد الاسترجاعي، والمشاهد الحوارية الداخلية والخارجية، لتقص علينا حكاية هذا النداء الذي كان لا يغيب عن سمع الطفل "علي" بطل الرواية وساردها، ولكنه كان يخفيه عن الجميع تماماً كما يجتهد العاشق في إخفاء رسائل محبوبه، وكالعاشق أيضاً يركض سراً ليلقى محبوبه البحر، وينسى نفسه على شاطئه:

""علي"" ... ميزت صوت والدي منادياً.

"نعم" "الله يسامحك"، نطق إبراهيم، ساعة ونحن نبحث عنك" (٥).

وكما يُحذر الأب ابنه من فتنة العشق حذر علي من فتنة البحر:

"احذر أن تعيدها.... يأخذك البحر وتغرق..

البحر لا يعرف صديقاً ... نطق أبي" (٦).

ولكن علي المفتون كان يرى البحر حياةً، وصديقاً صدوقاً يناديه دائماً، ويلح عليه في النداء، فهو لن يخذله ولن يغدر فيه أبداً:

"البحر صديقي

ردد الموج ورائي كلمات لم أفهمها، امتنعت أن أسأله

لماذا لا يعرف البحر صديقاً" (٧).

وكلما زاد النداء توالت الذكريات والحكايات على متن الرواية:

"الذكريات تستوطن رأسي ... الله يرحمك يا والدي ... ليتك عشت وتأكدت أن ولدك صادق البحر، وأنّ البحر أعطاه حياةً وعزاً.. يا والدي هل تصورت يوماً صداقة بين بحر ورجل؟ بين بحر ونقطة؟ أنا نقطة في البحر يا أبي" (٨).

وبهذا الإقرار من الراوي نوقن بأن النداء تحول إلى التحام حميم مع البحر بعد أن كان صوتاً طفولياً عابراً، التحام مع الحياة. فالحياة عند الراوي هي البحر الذي منحه من خيره الكثير.

ونقر أيضاً بأن النداء هنا نداء توثيقي، فهو يوثق لتاريخ البحر وأهله منذ أن كان وشوشة البدايات "تعال"، مروراً بالالتحام فيه "أنا نقطة في البحر"، وانتهاءً بتحوله إلى استغاثة ورجاء بالبقاء والرحمة، وهذا يظهر في القسم الثاني من البحث، ويدعم ذلك الربط الوثيق بين النداءات المتكررة وكتاب "أبناء السندباد" الذي ألفه القبطان الاسترالي الرحالة ألن فاليرز، ويؤرخ فيه لحياة البحر في منطقة الخليج العربي، ومنها الكويت، وكأن الكاتب هنا يعيد للكويت وأبنائها حق سرد تاريخها البحري، عندما يجعل "النوخذة" علي النجدي يروي حكايته، حكاية البحر الذي عرف تفاصيله وأسراره، واختاره بديلاً للمدرسة، فبعد أن عرف القراءة والكتابة تمنى أن يركب البحر ويصبح "نوخذة" مشهوراً.

وكلمة "نوخذه" تعني القبطان، ولكن الكاتب يريد منا أن نعيش المرحلة بمصطلحاتها الدارجة والمستعملة، لذلك تكثر في هذه الرواية مفردات البحر والبحارة ومنها: "القلاف" ويقصد به صانع المراكب والسفن، و"المجدمي" وهو مساعد النوخذة، و"السكوني"، البحار الذي يقف خلف الدفة، و"النهامي" وهو مغني البحر... الخ.

والبحر هو الكويت، فبعد أن كان يسمع نداء البحر عالياً في طفولته، إذ كان يفصله طريق ترابي يجتازه مشياً، أصبح بعد اكتشاف النفط، وتطور المدينة، يحتاج إلى نصف ساعة في السيارة:

"ما عاد درب تراب أليفاً يفصل بين بيتي والبحر، وما عدت أبصره كلما فتحت الباب... كويت العشرينات والثلاثينات كانت بحراً وغوصاً وسفراً"(٩).

فبعد أكثر من سبعين عاماً ما زال النداء نداء البحر في طفولته يلح عليه:

"عاد نداء البحر الخفي يخاتلني... ينادي علي... تعال"(١٠)، وهذا النداء يتزامن مع تحذيرات الأم والأب والزوجة بعدم تلبية النداء:

"أنت غشيم يا وليدي، لا تعرف شيئاً عن البحر"(١١)

ولكنّ البحر كما تعتقد زوجته "نورا" قد سحره، وهو استجاب طواعيةً لهذا السحر:

"كأن روحي ما عادت تستكين إلا على الخشب المتمايل والموج"(١٢).

والحقيقة أن " المونولج " في هذه الرواية يشكل مكونا هاما في تشكيل الدلالة للنص ، فمن خلاله لاحظنا ان الكاتب تمكن من إظهار هواجس البطل ومخاوفه وآماله وآلامه التي تقود للحديث عن طقوس البحر وتحولاته(١٣) .

طقوس البحر وتحولاته:

"تتخذ الرواية من تزاوج الضمائر عموداً لاشتغالها السردي على استحضار ذواتها"(١٤)، وهي تنطلق من "النوخذة" علي النجدي، وتتجه إليه، فبأمر المخاطب "تعال" كانت البداية، ومن ثم انتقلنا إلى ضمير المتكلم في حديثه عن طفولته، وتعلقه بالبحر، ومن ثم المخاطب في محاورة أبيه وأمه وزوجته، وإن كنا نرى في خطابهم أو مناجاتهم أحياناً حضور ضمير المتكلم "النوخذة" علي النجدي في أحلامه وآماله وتطلعاته وواقعه، لذلك يطغى الحوار الداخلي "المناجاة" على لغة الرواية، وبهذا الحوار يمتد البحر أمامنا واسعاً بمده وجزره وحكاياته، فالحكاية زاد البحار ووسيلته في الترفيه وقطع المسافات والتغلب على قهر البحر وصعوباته، وهي معادل موضوعي للحياة، فبالحكاية نعيش ونستمتع، وهناك عدة حكايات احتملها بناء الرواية الفني منها:

الحكاية الأولى: حكاية النجدي وعشقه للبحر وغرقه فيه.

والحكاية الثانية: هي حكاية القبطان الأسترالي "ألن فاليرز" الذي ألف كتاباً عن البحارة الكويتين كما يذكر علي سماه بأبناء السندباد، وصادقه عليه، ورافقه في رحلاته وأعجب بشجاعته ومهارته:

"أنت ربان يختزن ممرات البحر في رأسه"(١٥).

وقد بقي ألن فاليرز مخلصاً لكويت البحر لا النفط:

"تغيرت الكويت كثيراً، أصبحت مدينةً حديثةً... للأسف طلقتم البحر ما عاد شيء يربطكم به"(١٦).

والحكاية الثالثة : عن مغنيي البحر وأغانيه، والأغاني الخليجية الدافئة التي كانت تطرب، وتجعل جلسات البحر أحلى وأمتع، وقد نقول إن تتبعها يبين تاريخ الأغنية الخليجية التي كانت لا تغادر البحر وجلساته:

"قبل أي رحلة سفر كنت أفتش عن أفضل النهامين لأصطحبهم معي على البوم.... ما كان ممكناً أن أبدأ رحلةً بحريةً من دون مغنٍ معروف... الغناء عونٌ للبحار لا شيء يسليه إلا رحمة الله... وغناء[١٧].

والحكاية الأهم هي انتقال الكويت من دولة بحرية إلى دولة نفطية، وهذه الحكاية تتشكل من مجموع الحكايات السابقة. إذن نحن أمام بنية فسفسائية مزدحمة بالإشارات والمواقف والمعارف، يقول "النوخذة " علي النجدي:

"مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، توقفت سفن التجارة في الخليج العربي، بسبب الحرب والقذائف التي أغرقت أكثر من سفينة، كما أن اكتشاف اليابان للؤلؤ الصناعي أطفأ وهج الغوص. ومع تصدير أول شحنة بترول من الكويت عام ١٩٤٦.... الجميع أدار ظهره للبحر... كل راح يبحث عن عمل في شركة بترول... سوق التجارة.. الوكالات النقطية الأجنبية الجديدة... النفط غير البشر والحجر[١٨].

ونلحظ هنا أن الرواية ترصد التحولات السياسية في الكويت، ولا تكتفي بذلك، بل تشير إلى الحرب العالمية الثانية، وقضية العرب الأولى وهي القضية الفلسطينية، والتأكيد على أن فلسطين لن يحررها إلا أهلها ، على الرغم من إدعاء المجتمع العالمي مساعدته لهم.

كما ترصد الرواية التحولات السياسية، من خلال مدها، تشي بالتحولات الاجتماعية، من خلال جزرها، وتسلط الضوء على الكثير من المواقف التي تدل على احترام المرأة، وتقدير رأيها ودورها الأُسري:

يقول علي النجدي مخاطباً زوجته شمّة: "أنتِ نوخذة... كنت أغيب ٦ أو ٧ أشهر وكانت في بيت أبي تربي عيالي، وتدير شؤونهم، وتسهر عليهم "[١٩]، وترصد أيضاً عادات الزواج، إذ كان على الخاطب عدم رؤية عروسه إلا يوم عرسه، والجاهة، وكيف كان أهل المنطقة يمشون على الأقدام مع الطبالين إلى بيت العروس، والطعام الذي لا يخلو من التمر والسمك عند الجميع، ناهيك عن مراسم التوديع يوم "الدشة"، وهي اليوم الذي يتوجه فيه الرجال إلى مراكبهم وسفنهم للغوص في البحر:

"صباح يوم "الدشة" يضج شاطئ البحر بأهل الكويت المودعين، تجمعهم دموعهم ودعواتهم وأحلامهم بعودة أبنائهم ورجالهم وأقربائهم بموسم خير كثير وربح وفير"[٢٠].

ولكن النفط غيّر حياتهم الموسومة بالفقر والبساطة إلى حياة أسهل، ولكنها أكثر تعقيداً وبعداً عن الحميمية والمحبة الحقيقية بين الناس، فتغير لباسهم وطعامهم، وعادات الزواج لديهم، وركبوا السيارات الفخمة، وباعوا سفنهم ومراكبهم، وعملوا في الشركات والمصانع والتجارة.

ومن البديهي أن تقترن التحولات الاجتماعية بالتحولات الاقتصادية، وتنتقل الكويت من دولة بحر وبحارة إلى دولة نفط وتجارة.

واللافت للانتباه براعة الكاتب في اختزال كل هذه التحولات بشخصية واحدة هي شخصية النوخذة على النجدي؛ راسماً صورته على شاطئ الفريج وحيداً، متأملاً البيوت الطينية والسفن ومراكب الصيد ومشاعر الأهل والأقارب بمفارقة أبنائهم شهوراً، ليعودوا محملين بالخير من أجل أيامهم القادمة. وينجح الكاتب في رسم صورة لعلي بتمرده على الزواج المبكر السائد في ذلك الوقت، ورؤية عروسه قبل الزفاف، وتصميمه على تحقيق حلمه بأن يصبح من أصغر "النواخذة" في دولة الكويت، وكرمه العربي الأصيل، وولعه بالغناء، واهتمامه بالبحارة الذين يعملون معه وأناقته، وهي أناقة الشعب الكويتي المعهودة التي حافظ عليها قبل النفط وبعده، كما لم تتغير عادات الكرم والاهتمام بالبحارة حتى عندما تقاعدوا وانتهت حياة البحر:

"أبو فيروز يخصك السلام... يخاطبني سليمان... قابلته في سوق الجمعية فأوصاني... قل للنوخذة مشكور"(٢١).

ليطوي النوخذة علي النجدي متأملاً السيارات والمباني الشاهقة والطرق المعبدة وناقلات النفط، والجمعيات التعاونية التي لم يأنس إليها، ويتضح ذلك في رفضه ركوب السيارة، بعدّها منقصةً له، بعد أن كان نوخذة سفينة يُشار له بالبنان، وإصراره على أن البحر صديقه، على الرغم من تقادم الأيام على السير والغوص فيه:

"لماذا تمقت قيادة السيارة يا جدي"؟!

"كيف تقارن سفينة عظيمة بسيارة صغيرة من الصفيح...

البحر محبوبي"(٢٢).

وينجح في تصوير البحر وعالمه، فهو يراه ممتداً واسعاً متموجاً له قوانينه التي يفرضها على بحارته، وهذه القوانين مستمدة من قوانين الطبيعة الرياح والأنواء والعواصف

والأمطار وهو ممتلئ بالدرر واللالئ والأسماك التي تتعدد أنواعها في الرواية الشعر، القرش، السبيطي، وغيرها، وللغوص قوانين، وللصيد قوانين، وللسفر في البحر من أجل التجارة قوانين، ومن تخيره البحر نوخذةً عليه أن يحفظ هذه القوانين بعقله وقلبه، لأنه هو الآمر الناهي على ظهر سفينته التي تشق عباب البحر، ونرى النوخذة دائماً كالطفل في حضرته، يوجه الأسئلة له، ويستحضر الإجابات من البحر تقلباته:

"في تلك الرحلة بين جبال الموج الأسود عرفت جواباً لسؤال طفولتي: ما الذي يفعله البحر بالسفن الكبيرة فتغدو صغيرةً؟! هناك حيث حوض ماء الدنيا تبدو السفينة وكأنها قطعة خشب صغيرة عائمة تلعب بها الريح، ويلهو بها الموج والقدر. هناك أدركت روحي أنه لا وقوف لخشبة صغيرة في وجه بحر"(٢٣).

"أحياناً أشعر وكأن البحر مكتفٍ وصادٌ بعالمه: راضياً أو غاضباً.. أبيض أزرق رمادياً أسود هادئاً أو عاصفاً... كأن البحر لا يحتمل عبث البحر في أنحائه وأعماقه... كثيراً ما فكرت ألهذا يرفض البحر صداقة البشر؟؟!"(٢٤).

وبيسر يلحظ القارئ أن بينة الرواية تقوم على الأسئلة، ولا يبقيها- كما تقدم- الكاتب دون إجابة، والإجابات تأتي عميقة كعمق البحر، إجابات فلسفية تفرضها الأسئلة الوجودية التي يطرحها النوخذة علي النجدي:

"ما ضر البحر لو صادق نوخذة يعشقها ويهيم بعالمه"(٢٥) ، وهذه الاجابات الفلسفية دفعت بإحدى الباحثات إلى الإقرار بأن النجدي بقي فردا إشكاليا إلى نهاية الرواية ، وبقي متعلقا بالبحر رغم جبروت الحداثة وانتشارها الواسع(٢٦) . فما يميز هذه الرواية ليس هو تلك المعلومات الموثقة لحياة النجدي ولا الحس التاريخي العميق للتحولات (٢٧)التي حدثت لدولة الكويت ، إنما قدرة الكاتب على تجسيد حياة البحارة الذين عشقوا البحر ، فأكرمهم ، وآذاهم في الوقت ذاته .

صرخة الموت النداء الأخير

تبدأ هذه الصرخة من القسم الخامس المعنون بالزمن الذي يشير إلى الساعة العاشرة مساءً، فالرواية مقسمة إلى ثمانية أقسام، تتوزع زمنياً من الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، ويفتتح بصرخة "النوخذة" علي النجدي:

"عاصفة صرخت بأعلى صوتي" [٢٨]، ويتضح من هذه الصرخة العنيفة مباغة العاصفة له ولصاحبيه، على الرغم من أنه كان يستشعر بها، ولكن زمن الرحلة في منتصف شباط تقريبا، وعدم بعده عن شاطئ الكويت الذي يحفظه حال دون تصديق أن عاصفة تهب ناهيك عن حبه للمغامرة، وثقته بنفسه وبصداقة البحر له:

"كأني استشعر نسمة هواء غريبة تلامس وجهي، تعبر أنفي، يحضرني هاجس رائحة أعرفها. لا أظن ذلك. نحن في شهر شباط، استبعد مرور عاصفة"[٢٩]. ولكن هذه الرائحة حاصرته، وسدت أنفاسه بقوة، فالعواصف تتشكل بسرعة، ليسقط المطر بغزارة، ويزداد الموج تعالياً، ليشكّل مع الريح حلفاً يطيح بالمراكب ويقضي على البحارة:

"الريح تهب من كل الاتجاهات، تنصب شباك ظلمة في طريقي... لا أكاد أرى أي شيء كلما تقدم اليخت... لينقلب، على أحد جانبيه عناصر الطبيعة، تتحد بعضها مع بعض ضد الإنسان[٣٠]، وينجح الكاتب في جعل القارئ يعيش هذه العاصفة، ويستذكر حكايات ألف ليلة وليلة وغيرها من الحكايات العجائبية الغرائبية، فالمركب ينقلب، ويتشبث علي النجدي وصديقاه بصندوق السمك الذي تفر منه الأسماك التي اصطادها بزهو وفرح، لعودتها إلى موطنها البحر، وكيف يتبادلون الحديث، ويخلغون ملابسهم دون أن يروا بعضهم، وكيف يغادرهم سليمان ليبحث عن شارة النجاة، وكيف تخور قوى النجدي وعبدالوهاب، ليتحضنهما البحر غير مكترث بصداقة النجدي الطويلة له وعشقه ورفضه أن ينعت البحر بالغدار، ونلحظ بيسر من خلال المناجاة الداخلية التي وسمت الراوية عامةً، والأقسام الأخيرة خاصةً، عتاباً بين عاشق ومعشوقته، فلم تقسو اللغة على البحر بل بقيت تصفح وتهادن:

" لماذا يا بحر أنا صديقك... أنت تعرفني يا بحر! ولدت من خاصرتك، وتربيت في حضنك... يا بحر أنا تركت الدنيا لأجلك فهل تغدر بي"[٣١].

وهناك مواضع كثيرة يظهر فيها العتاب الممزوج بمرارة الغدر الذي أدركه النوخذة علي النجدي، ولكن بعد فوات الأوان، فيستسلم للموت عشقاً كالشعراء المجانين، وتختتم الراوية بمناجاة مهمة للنوخذة مفادها:

" النجدي ولدك، فلماذا... مؤكداً أنك تريدني إليك، لنبقَ معاً... أنا ولدك يا بحر، نسبي البك، نوخذة... سأبقى بالبحر... لن أفارق البحر"[٣٢].

وفي ساعة الموت من العاشرة والنصف إلى الحادية عشرة مساءً يستحضر النوخذة علي النجدي الأموات الذين يحبهم جميعاً وكأنه يقول لهم: أنا قادم اليكم فانتظروني، يستحضر أمه وحنانها وتحذيراتها، ووالده وتوجيهاته، وزوجته الأولى "شمة" وخوفها عليه، ومحبته الدائمة لها، وأصحابه الشجعان. أما زوجته الثانية "نورا"، فصوتها هو الخيط الذي يبقى حاضراً منذ بداية الراوية عندما نبهته إلى عدم الذهاب، وتذكيره بكبر سنه وضرورة العودة مبكراً، ليصدح صوتها بقوة كلما ازدادت العاصفة، واقترب الموت منهم: " نورا نصحتني: ابق معنا اليوم لا تروح"(٣٣).

وفي موضع آخر:

"نورا قالت لي.. اليوم برد لا تروح"(٣٤).

ولكن علي لا يستسلم، ويبقى قوياً معاندا، فهو نوخذة محترف، ويبدأ بتذكر مهاراته في ركوب البحر وأهواله، ويتذكر حكايات كثيرةً حدثت معه في أسفاره أهمها: إنقاذ طفل غرق في البحر، والبحث عن بحار لا يعرفه في عرض البحر، وتزويج أحد بحارته من فتاة هندية، وصحبته للقبطان ألن فاليرز، وسهراته على ظهر البحر، وتنقله بين شواطئ الهند ودبي، ففي ساعة الموت تمر حياة النوخذة من أمامه شريطاً من الذكريات الجميلة في أحضان صديقه البحر الذي منحه مالاً وعزاً وسلطةً حتى لحظات عمره الأخيرة، كما تكشف الراوية، فعبدالوهاب وسليمان يتلقيان الأوامر منه حتى اللحظات الأخيرة، لأن لا أحد يقرر في حضور النوخذة علي، وهو كما رأى أحد الدارسين " ليس بطلاً خارقاً، إنه إنسان يتحدد جوهره في المقاومة والتحدي، واحترام الخصم، وهو بذلك لا يختلف عن سانتياغو العجوز عند همنغواي، لقد كان مثله وحيداً شغوفا بالبحر، قاوم العاصفة والبرد والموج الهادر، وسيكون شاهداً على موته"(٣٥).

ومن الجدير بالذكر أننا حين نعاود استرجاع شريط الذكريات مع النوخذة علي النجدي نصاب بالدوار، ولعله دوار البحر الذي يفقدك الوعي بسحره وجماله وامتداداته الواسعة، لتقف معاتباً مع البطل علي النجدي البحر:

"أنا ابن البحر لماذ يكسر البحر ظهر ولده؟!.. لماذ ينكرني البحر بعد طول عشرتنا؟! ماذا ستفيد يا بحر... لماذا يقتل البحر بحاراً عجوزاً "(٣٦).

وتنظر بعين الشفقة الى النوخذة، الذي يقود اليخت، كما تذكر الراوية، وهو مغمض العينين، وشهد بمهاراته أقرانه وزملائه والأجانب، ودونوا بطولاته في أسفاره، لأنه وقع في شرك البحر الغدار، وتنظر بعين الأعجاب الى محاولته بذل الجهود لإنقاذ صاحبيه غير مكترث بنفسه، وإصراره على طلب السماح منهما، على الرغم من أنه يموت معهما، فالكاتب رسم صورةً حقيقيةً لبحار عربي أصيل.

الخاتمة

بعد هذا التجديف في بحر رواية النجدي نخلص إلى النتائج الآتية:

١. شكل البحر عنصراً أساسياً في البناء الفني للرواية، فقد اتخذ دور البطولة في احتوائه على الكثير من الخبايا والأسرار التي تجلو حياة البحار، وظروفه الاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن كشفه للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي غيرت بنية المجتمع الكويتي وحياة أفراده.

٢. تحتفي الرواية بالمكان- البحر- فهو لم يكن مجرد ديكور للشخصية أو الأحداث الروائية، بل كان حاملاً أساسياً للشخصية المحورية "النوخذة" علي النجدي، وحاضناً لعشقه بكل ما يعنيه الاحتضان من التصاق وحميمية وقوة، انعكست إيجاباً على تماسك البناء الروائي.

٣. ظهر الزمان في الرواية مقترناً بالمكان البحر، فالتفرعات الزمنية التي تتوزع على أقسام الرواية انطلقت من المكان الطريق إلى البحر، ركوب اليخت، السير في البحر، العاصفة، والغرق، وقد فرض حضور البحر الهائل اللجوء إلى السرد الاسترجاعي، والمناجاة الداخلية، والحوارات الخارجية، وتنوع الضمائر ليزيد من عمق الارتباط بين الزمان والمكان والشخصيات فكأنها نقطة في بحر الرواية الواسع.

٤. المعجم البحري القديم حاضر في لغة الرواية، سواء في وصف ملابس النوخذة والبحارة، وطعامهم وشرابهم وسهراتهم وأغانيهم، وفي صناعة سفنهم ومراكبهم، وتقسيم وظائفهم البحرية النوخذة، المجدمي، السكون، اللقاف، النهام، الغترة، الشاي الحار... ، وأسهم هذا في دعم أجواء البحر في الرواية التي تحتفي به بطلاً.

٥. تظهر براعة الكاتب وتمرسه في الفن الروائي، إذ استطاع أن يحول قصة "النوخذة" علي النجدي الحقيقية كما يذكر في لقاءاته الصحفية، وكذلك في تصدير الرواية،

وكتاب أبناء السندباد، وغيره من الكتب التي تتحدث عن حياة البحر في الكويت، إلى قصة خيالية، تقترب في نهايتها من قصص ألف ليلة وليلة مشهد التعلق بصندوق السمك، متجاوزاً الملل الذي يحدثه السرد التاريخي للأحداث. ولا نغفل أيضاً براعة الكاتب في وصف شخصية "النوخذة" علي النجدي مادياً ومعنوياً، سواء من خلال حديثه، أو حديث الشخصيات الآخرى عنه، فالسرد التفصيلي شكّل الشخصية بعمق.

٦. تعيدنا قراءة هذه الرواية إلى أجواء روايات البحر الخالدة، مثل "العجوز والبحر" لهمنغواي، و"موبي ديك" لميفليل، و"حكاية بحار غريق" لماركيز، التي رصدت مواجهة أبطالها لشراسة البحر الغدار في لحظة مصيرية مروعة.

٧. وأخيراً الرواية نص فسيفسائي يختزن الكثير من المعارف والحكايات والأغاني والقيم الاجتماعية، بلغة بسيطة عميقة تتلائم مع واقع البحر الذي ترصده.

هوامش البحث

(١) انظر بيومي ، خالد ،البحر في الرواية العربية ، روز اليوسف اليومية : القاهرة ، ١-٨-٢٠١٨ حشد الباحث العديد من الامثلة من النتاج الإبداعي المتعلق بالبحر قديما وحديثا

(٢)رابح ، عبددو ، جماليات السرد عند واسيني الأعرج ، رسالة دكتوراة ، قسم اللغة العربية ، جامعة أحمد بن بلة : الجزائر العام الجامعي ٢٠١٦-٢٠١٧ ، ص ٤٤-٤٥

(٣)الرفاعي، طالب، النجدي، ط٢، ذات السلاسل: الكويت، ٢٠١٧، ص ١٣

(٤)المصدر نفسه، ص ١٢٧

(٥)المصدر نفسه، ص ١٥

(٦)المصدر نفسه ، ص ١٤-١٥

(٧)الرفاعي، طالب، مصدر سابق ؛ ص ١٦

(٨)المصدر نفسه، ص ١٧

(٩)المصدر نفسه، ص٢٣، ٣٧

(١٠)المصدر نفسه، ص ٣١

(١١)المصدر نفسه، ص ٤١

(١٢)المصدر نفسه، ص ٣١

(١٣) الفائدة ، سالم ، الرواية العربية والمحرم التلقي ، اللغة ورؤية العالم ، ط١ ، إفريقيا الشرق : المغرب ،٢٠٢١ ، ص٢٦٦.

(١٤) إمام ، طارق ، خيط أبيض سريع التلاشي ، ضفة ثالثة – منبر ثقافي عربي - ، ١ مارس ٢٠١٨

(١٥)الرفاعي ، طالب ، مصدر سابق ،ص ١٠٤

(١٦)المصدر نفسه، ص ١١٠

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٦-٣٧

(١٨) المصدر نفسه، ص ١١١،١٠٥

(١٩)المصدر نفسه ، ص٧٠.

(٢٠)المصدر نفسه ، ص٤٥

(٢١)المصدر نفسه، ص ٣٨

(٢٢)المصدر نفسه، ص ٣٩، ٤٠

(٢٣)الرفاعي ، طالب ،مصدر سابق، ص ٥٦،٥٧

(٢٤)المصدر نفسه، ص ٦٢

(٢٥)الرفاعي ،طالب ،مصدرسابق ، ص٦٢

(٢٦)العجيلي ، شهلا ، النجدي لطالب الرفاعي : جماليات الهوية ومواجهتها ، جريدة القدس العربي : لندن ١٤ فبراير ٢٠١٨ .

(٢٧)فضل ، صلاح ، سرديات القرن الجديد ، ط١ ، الدار المصرية اللبنانية : القاهرة ، ٢٠١٥ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص١١٣.

(٢٩)المصدر نفسه ، ص ٨٩-٩٠ .

(٣٠)المصدر نفسه ، ص ١١٧.

(٣١)المصدر نفسه، ص ١١٦، ص١٢٤ ،ص١٥٥.

(٣٢)المصدر نفسه، ص ١٧٢ .

(٣٣)المصدر نفسه ، ص ١٢٣.

(٣٤)المصدر نفسه ، ص ١٤٠.

(٣٥)بنكراد ، سعيد ، النجدي لطالب الرفاعي بين التخييل والتاريخ ، مجلة الفيصل ، ١مارس ٢٠١٨.

٣٦) الرفاعي ،طالب ،مصدر سابق ، ص١٦٧، ص ١٦١ ، ص١٥٥ .

قائمة المصادر والمراجع

- إمام ، طارق ، النجدي لطالب الرفاعي ... خيط أبيض سريع التلاشي ، ضفة ثالثة ، منبر ثقافي عربي ، آذار ٢٠١٨ .
- بنكراد ، سعيد ، النجدي لطالب الرفاعي بين التخييل والتاريخ ، مجلة الفيصل ، عدد ٤٩٧ – ٤٩٨ ، السعودية ، مارس ٢٠١٨ .
- بيومي ، خالد ، البحر في الرواية العربية ، صحيفة روز اليوسف اليومية : القاهرة ، ١-٨-٢٠١٨ .
- رابح ، عبددو ، جماليات السرد عند واسيني الأعرج ، رسالة دكتوراة ، قسم اللغة العربية ، جامعة أحمد بن بلة : الجزائر العام الجامعي ٢٠١٦-٢٠١٧ .
- الرفاعي ، طالب ، النجدي ، ط٢ ، ذات السلاسل : الكويت ، ٢٠١٧ .
- العجيلي ، شهلا ، النجدي لطالب الرفاعي : جماليات الهوية ومواجهتها ، جريدة القدس العربي : لندن ١٤ فبراير ٢٠١٨ .
- الفائدة ، سالم ، الرواية العربية والمحرم التلقي ، اللغة ورؤية العالم ، ط١ ، إفريقيا الشرق : المغرب ،٢٠٢١ .

- فضل ، صلاح ، سرديات القرن الجديد ، ط١ ، الدار المصرية اللبنانية : القاهرة ، ٢٠١٥ .